صورة الأدب من زاوية اللغة عند ابن خلدون

أ: فريد خلفاوي
جامعة حمة لخضر الوادي
أ.د. بلقاسم مالكية
جامعة قاصدي مرباح ورقلة

ملخص:

تتناول هذه الدراسة قضية هامة من قضايا البحث اللغوي، إذ تتعرض إلى إشكالية هامة تتمحور حول نظرة ابن خلدون للظاهرة الأدبية من زاوية لغوية، والكشف عن آرائه في هذه القضية.

إن ابن خلدون يتعرض إلى الأدب باعتباره ظاهرة من ظواهر العمران البشري، ويعالجه على هذا الأساس، إذْ هو من العوارض العمرانية في الأمصار التي تكثُر فيها العمران، فهو يعدُّه من الكماليات

وسنتعرّض في هذه الدراسة إلى أهمية الأدب من جهة نظر خلدونية، وتقسيمه للأدب، ونظرته إلى هذه الأنواع الأدبية.

SUMMARY:

In This study we speak about an important issue of linguistic research, This based on an important problem that teads I its linguistic visualization from Ibn kheldoun point of view.

Ibn kheldoun speaks about literature as phenomenon of human urbanization and teated it as a problem enon in district in towns that are full of citizens.

In This study we show the importance of literature from Ibn kheldoun point of view and his division also to his about these literature kinds.

توطئة:

اللغة بالنسبة للأدب هي المبدأ والمعاد، فهي نقطة الانطلاق ونقطة وصوله على السواء، فاللغة تضفي على الأدب صبغتها المجردة كما تضفي عليه مادتها المحسوسة، ومن هنا فإن الأدب ليس مجرد الحقل الأول الذي يمكن دراسته ابتداء من اللغة، بل إنه الحقل الذي يمكن لمعرفته أن تسلط ضوءا جديدا على خواص اللغة نفسها.

ومعرفة الأدب تتبع مسارا موازيا لمسار معرفة اللغة، بل إن هذين المسارين سيختلطان، هذا الحقل يفسح المجال لإظهار العلاقة بين الأدب واللغة، وفي الحقيقة أن المحاولة في تناول هذه العلاقة كانت في الدراسات النثرية، حيث حاول الشكلانيون الروس أن يكشفوا عن مثل هذا الشبه، وقد وضعوها بالضبط بين وسائل الأسلوب ووسائل تنظيم السرد، بل إن إحدى مقالات "فكتور شكلوفسكي" الأولى كانت بعنوان" الصلة بين وسائل التأليف والوسائل الأسلوبية عموما"، فلاحظ هذا المؤلف أن التأليف المتدرج يحدث في السلسلة نفسها بوصفه ترديدا للأصوات، وحشوا وتوازيَ حشوٍ وترديدا، ففي دراسات شكلوفسكي عن أنواع التأليف ميّز نوعين رئيسيين للتأليف في القصص، فمن جهة الشكل، فالسرد منفتح يمكن أن تضاف إليه في النهاية مغامرات جديدة دائما مثل مغامرات بطل ما، وهناك من جهة ثانية شكل مغلق يبدأ وينتهي بالدوافع نفسها، ولكن يتضمن رواية قصص أخرى فيه.[1]

والوسائل البلاغية تثري السرد كالتوازي والمقالة والتدرج والتواتر والتكرار، كما يوجد أيضا وسائل بلاغية موجودة في إحدى الخواص الأساسية للغة وهي غياب علاقة الملازمة بين الصوت والمعنى، وهذا الغياب تنشأ عنه ظاهرتان لغويتان معروفتان هما: الترادف، وتعدد المعاني،

فالترادف الذي هو أساس التلاعب بالكلمات في الاستعمال اللغوي، حيث يأخذ شكل وسيلة أدبية نسميها" التعرف"، أما تعدد المعاني فمبعث أشكال بلاغية عديدة كالجناس الذي يمكن أن يكون في الكلمة كما يمكن أن يكون في الحدث.[2]

من هنا نستنتج أن ثمة قرابة بين مظاهر اللغة والمظاهر الأدبية، وهذا على مستوى الأشكال والصيغ، فاللغة في تنوعها واختلافها وعمقها فيها تبقى لا متناهية، وبالتالي تتفوق اللغة الأدبية على لغة العلم واللغة الحياتية واللغة المؤسساتية لأنها تتسم دوما بالمجازية والاستعمارية والغموض والتجسيد والحيوية، بينما تتسم لغة العلم بكونها رموزا مجردة ميتة، تقدم المعرفة تقييما مباشرا، كما أن لغة الأدب تعتمد على التفاعل والإيحاء وهو شيء لا يتفق ولغة العلم الذي يقوم على وضوح المعاني.[3]

بعد هذا التقديم عن علاقة اللغة بالأدب يمكننا الحديث عن نظرة ابن خلدون للأدب ومن ثم نتعرض لبعض أدبه.

1- <u>نظرة ابن خلدون للأدب:</u>

يبني ابن خلدون رؤيته على مرتكز واضح هو التأكيد بل الإصرار على الصلة الوطيدة والثابتة القائمة بين المعرفة العلمية والعمران أو المدنية، أي بين العلم والتقدم الاجتماعي بمعنى آخر، إذ أن العلوم لا تقوم إلا في مجتمع، مما يعني أن المعرفة والعلم بالنسبة إليه إنما يعبران أو هما يعكسان دينامية المجتمع وتحولاته، ولا يمكن إدراك ماهيتهما إلا من خلال هذه الدينامية، وما دامت هناك درجات في العمران والمدنية، فهناك بالضرورة درجات في العلم والمعرفة، وبقدر ما يخطو المجتمع والتمدن أماما ويتقدم تتقدم المعارف والعلوم وتزدهر "فعلى مقدار عمران البلد تكون جودة الصنائع".[4]

والمدخل الذي يقود ابن خلدون للحديث عن الأدب هو باب الصنائع التي يقول فيها إن منها البسيط والمركب، البسيط هو المختص بالضروريات، والمركب هو الذي للكماليات، ومنها ما يختص بأمر المعاش ضروريا كان أو غير ذلك، وما يختص بالأفكار وهذه خاصية الإنسان من العلوم والصنائع والسياسة، ورسوخها جميعها إنما هو برسوخ الحضارة، إذ أنها عوائد للعمران.[5] والصنائع كما يشير كثيرة في النوع الإنساني، إلا أن منها ما هو ضروري في العمران،

وما هو شريف بالموضع، فالضروري كالفلاحة والبناء والخياطة والنجارة والحياكة والشريف بالموضع الكتابة والوراقة والغناء والطب...[6]

يتعامل ابن خلدون مع الأدب باعتباره علما تابعا، أو علما مساعدا، له غاية واضحة هي مؤازرة ودعم فعل معرفة أسرار العربية لتفسير النص الديني وامتلاك معناه، وهو مفهوم ساد لدى كثير من العلماء المشتغلين بعلوم الدين والشريعة الذين رأوا أن الآداب إنما تدخل ضمن عمليات وإجراءات استكناه العربية لتفسير القرآن من جهة المفردات والعبارات وشرح الغريب الوارد في كلام الرسول، واعتبروا أن الاستقصاء في كل أنواع العلوم المرتبطة باللغة والشواهد الشعرية أجل وأعظم المعارف الدنيوية، وهي توطئة لكل العلوم الشرعية، ويقرر ابن خلدون أن معرفة هذه العلوم ضرورية على أهل الشريعة "إذ مأخذ الأحكام الشرعية كلها من الكتاب والسنة وهي بلغة العرب...، فلابد من معرفة العلوم المتعلقة بهذا اللسان لمن أراد علم الشريعة"[7]

ويفيد هذا أن الغرض الأسمى من الأدب هو حصول " القدرة" أو "القوة" على فهم كتاب الله وكلام الرسول ومعرفة بناء الألفاظ والدلالات الواردة في القرآن والحديث لاستنباط الأحكام.

من هنا يعرض ابن خلدون لمسألة تعريف الأدب، فيقول: « هذا العلم لا موضوع له، ينظر في إثبات عوارضه أو نفيها، وإنما المقصود منه عند أهل اللسان ثمرته، وهي الإجادة في فني المنظوم والمنثور على أساليب العرب ومناحيهم».[8]

ويندرج ضمنه فن الشعر وفن السجع ومسائل من اللغة والنحو وأيام العرب وأخبارهم وأنسابهم، وهذا تحديد يلتقي مع جملة التعريفات القديمة التي لا تقوم على تعريف جامع مانع للأدب بقدر ما تقدم من إحصاء للعلوم والمعارف والفنون المنضوية أو الملتئمة تحت عنوان الأدب، يضاف إليها أو يعدل منها حسب الظروف والأحوال، فالسائد أن علوم الأدب ثمانية: النحو واللغة والتصريف والعروض وصنعة الشعر وأخبار العرب وأنسابهم، وألحق بهم صاحب "نزهة الألباء في طبقات الأدباء" لابن الأنباري، علم الجدل في النحو وعلم أصول النحو.[9]

ويستطرد ابن خلدون من جانب آخر في حديثه عن حدّ الأدب عند العرب فيقول: « ثم إنهم إذا أرادوا حدّ هذا الفن قالوا: الأدب هو حفظ أشعار العرب وأخبارها والأخذ من كل علم بطرف، يريدون من علوم اللسان أو العلوم الشرعية من حيث متونها فقط، إذ لا مدخل لغير ذلك من العلوم في كلام العرب»[10]

ويقسّم ابن خلدون كلام العرب إلى فنين: فن الشعر المنظوم، وفن النثر (الكلام غير الموزون)، ويحدّ الشعر بقوله" الكلام الموزون المقفى ومعناه الذي تكون أوزانه كلها على روي واحد هو القافية"[11]، وهذا تعريف في جوهره عروضي ينصب على جانب الوزن في ماهية الشعر، ويكاد يلتقي مع ما ساقه في مجال الغناء حيث يلتبس أحدهما بالآخر، ويبدوان وكأنهما وجهان لعملة واحدة، وفي تدقيق آخر يضيف أن هذا الفن يوجد في سائر اللغات، بعد أن ساد لدى الكثيرين أنه فضيلة من فضائل العرب وأنهم خصوا به دون سواهم من الأمم، ويعيد صياغة حدّه في معرض حديثه عن صناعة الشعر ووجه تعلّمه بقوله: « وهو في لسان العرب غريب النزعة عزيز المنحى، إذ هو كلام مفصل قطعا قطعا متساوية في الوزن، متحدة في الحرف الأخير من كل قطعة، وتسمى كل قطعة من هذه القطعات عندهم: بيتا، ويسمى الحرف الأخير الذي تتفق فيه: رويا وقافية، ويسمى جملة الكلام إلى آخره: قصيدة وكلمة»[12]

إن ابن خلدون تعامل مع الأدب وما يتصل به ضمن سياق عام يدعم رؤيته وتصوره وأطروحته حول العمران ونشوء الاجتماع أو الدولة، حيث اعتبره جزءا من مهام استكمال ضرورات المعاش، ولا يقوم إلا حينما تسد الحاجات العضوية مما يحمل الاجتماع الإنساني إلى التفرغ للنشاط العقلي بمجرد استيفائه سبل الكسب والمعاش في ما هو ضروري لبقائه، فتتولد له عندئذ العلوم والمعارف، ويكون بناؤها على شكل :(القاعدة هي البنية المعاشية، والقمة هي البنية المعرفية)، غير أن تناوله لكثير من القضايا الأدبية لم تنتظم في سياق نظرته الشمولية، ولم يلتزم حدودها أو قوانينها التي حاول أن يخضع لها سيرورة النظام السياسي (الدولة)، إضافة إلى تجاهله وإغفاله الكثير من الفنون الأدبية النثرية التي فرضت صيغتها على صعيد الممارسة الأدبية.

1- 1- اللغة وسيلة الأدب:

اللغة وسيلة الكاتب الأولى ومادته الخام في إنتاجه الفكري وتعبيره عن مشاعره وأحاسيسه، كما لها أهمية بالغة بالنسبة للقارئ لأنها توضّح النص وتكشف مكنوناته وأبعاده، فاللغة تُكتسب العمل الأدبي قواما يعجّ بالحركة والحيوية، الأمر الذي يعمل على خلق ارتباط وثيق بين اللغة من جهة وبين الأفكار المعبّر عنها في النص.

وتتحكّم براعة الأديب في امتلاكه اللغة ومفرداتها في إنتاجه الأدبي، فكلما كان الأديب بارعا في اللغة واستخدامها ومتحكما في آلياتها كان نصّه جيّدا، لهذا اهتم العرب قديما باللغة وتراكيبها في أشعارهم باعتبارها أدبهم الأول، حيث كانوا يختارون من الألفاظ فصيحها، وينتقون من العبارات والتراكيب أكثرها مناسبة لمقتضى الحال، وهذا ربما هو العامل الأول الذي جعل بعض النقاد فيما بعد يصنّفون الشعراء إلى طبقات ومراتب مختلفة.[13]

فاللغة إذًا تبرز قدرة الأديب على توظيفها، فهي سِمة من سِمات شخصيته الأدبية التي تتباين من أديب إلى آخر، فقد يرقّ أدب أحدهم ويصلُب أدب آخر، ويرقى أدب أحدهم ويضعُف أدب آخر، وتسهل ألفاظ أديب وتصعُب عند آخر، وتتضح أفكار أحدهم من خلال لغته، وتكون غامضة عند آخر، كل ذلك[14] بحسب اختلاف الطبائع وتباين الخُلُق، فسلامة اللفظ تتبع سلامة الطبع، وسوء الكلام بقدر سوء الخُلُق، فتتّضح طبائعنا وأخلاقنا وشخصياتنا من خلال اللغة التي نستعملها.[15]

1-2- <u>الأسلوب:</u>

رغم أن اللغة هي المادة الأساسية لإنتاج كافة النصوص بأنواعها وأغراها المختلفة إلا أنها لا تكفي لوحدها في ذلك، وإلّا كانت نصوص الأدباء من الطبقة الواحدة غير مختلفة، من هنا يدخل عامل آخر في تشكيل هذه اللغة للتعبير عن المعاني والأفكار والأحاسيس المراد طرحها في النص وتوصيلها بشكل مميّز، يتم عبره التعامل مع اللغة من خلاله تطويعها وتشكيل مفرداتها وصياغة عباراتها وتراكيبها بصورة مميّزة للنص وصاحبه، ومنها تختلف النصوص ويختلف أصحابها بهذه المميّزات، هذا العامل هو الأسلوب الذي يتميز به كل أديب ويختلف به عن الآخرين، ليضفي على النص من خلاله تلك الإضافات الفردية المتميّزة رغم أن اللغة المشتركة بينهم واحدة وألفاظها واحدة.[16]

والأسلوب هو طريقة التفكير والتصوير والتعبير[17]، وبهذا يكون لكل أديب أسلوب خاص به في التعبير عن أفكاره ومشاعره، فهو دليل على ما يتوفّر لديه من لغة بكل مكوناتها من ألفاظ وتراكيب وصور وبلاغة ودلالة.[18]

يتحدث ابن خلدون عن الأسلوب في الفصل السادس والخمسين من بابه السادس من الكتاب الأول، حيث عنون هذا الفصل بـ "في أن صناعة النظم والنثر إنما هي في الألفاظ لا في المعاني"، فيقول: « اعلم أن صناعة الكلام نظما ونثرا إنما هي في الألفاظ لا في المعاني، وإنما المعاني تبع لها وهي أصل، فالصانع الذي يحاول ملكة الكلام في النظم والنثر، إنما يحاولها في الألفاظ بحفظ أمثالها من كلام العرب»[19]

ويضيف عن المعاني وانتقائها باستعمال اللغة فيقول: « ... وأيضا فالمعاني موجودة عند كل واحد وفي طوع كل فكر منها ما يشاء ويرضى»[20]

ومن جهة أخرى يرى ابن خلدون أن الأسلوب هو المنوال أو القالب الذي توارثه الشعراء، وذلك حين تكلّم عن فنّ الشعر وأنه صعب المأخذ لا يُستجاد باستحكام اللغة فقط، إنما يحتاج إلى تلطّف في تلك الملكة بمعرفة القوالب التي يُفرَغ فيها الكلام الشعري وامتلاكها، ويقول في ذلك عن الشعر: « ولا يكفي فيه ملكة الكلام العربي على الإطلاق، بل يحتاج بخصوصه إلى تلطّف ومحاولة في رعاية الأساليب التي اختصّته العرب بها وباستعمالها»[21]

ويشرح هنا هذه القضية بقوله: « ولنذكر هنا الأسلوب عند أهل هذه الصناعة وما يريدون بها في إطلاقهم، فاعلم أنها عبارة عندهم عن المنوال الذي يُنسج فيه التراكيب، أو القالب الذي يُفرغ فيه، ولا يرجع إلى الكلام باعتبار إفادته أصل المعنى الذي هو وظيفة الإعراب، ولا باعتبار إفادته كمال المعنى من خواص التراكيب ... إنما ترجع إلى صورة ذهنية للتراكيب المنتظمة كلية باعتبار انطباقها على تركيب خاص»[22]

2- <u>تقسيمه للأدب:</u>

لم يخرج ابن خلدون في تقسيمه للأدب عن التقسيم العام، وتحدّث عنه باعتباره نوعين (نظم ونثر)، وعقد للحديث عن ذلك ما يقارب ثمانية فصول، وهي الفصول الأخيرة ، فعقد الفصل الأول منها للحديث عن انقسام الكلام إلى فنّي النظم والنثر، حيث بيّن فيه حدود كل

منهما والأسلوب الواجب إتباعه في كل نوع، وخصّص الفصل الثاني للحديث عن الإجادة في هذين الفنّين، وبيّن عدم إجادة الفنيّن معا، لأن الملكة المستحكمة في مكانها قلّما يجيد صاحبها ملكة أخرى، وأدرج فصلا ثالثا للحديث عن صناعة الشعر ووجوه تعلّمه، وأسهب في الحديث عنه تعريفا ونظما وصناعة ومكانة عند العرب، ثم عقد فصلا رابعا خصّصه للحديث عن الألفاظ والمعاني وأهميتها في صناعة النظم والنثر، وبيّن أنها تقوم على الألفاظ أساسا لا في المعاني، أما الفصل الخامس فتحدّث فيه عن كيفية حصول الملكة في كل فنّ، وإن كان الحديث فيه عن الشعر أكثر منه في النثر، وأثر الحفظ وجودة المحفوظ في استحكام الملكة، ليليه فصل سادس خصّصه لبيان المطبوع من الكلام والمصنوع، حيث فرّق بينهما تفريقا واضحا، ثم بيّن وجوه المصنوع وقصوره، وفصل سابع تكلّم فيه عن ترفّع أهل المراتب عن انتحال الشعر، ليختم بفصل ثامن تحدّث فيه عن أشعار العرب وأهل الأمصار.[23]

2-1- <u>الشعر:</u>

الشعر هو أحد فنّي الأدب أو الكلام عن ابن خلدون، وهو ديوان العرب وأدبهم الأول، حيث سجّلوا فيه مآثرهم ومفاخرهم وأيامهم وأخبارهم، وله أغراض عدّة استمدت طبيعتها من واقع الحياة التي كان المجتمع العربي يحياها، حيث تنوّعت هذه الأغراض حسب المكان والزمان، فالشعر الجاهلي كانت له أغراضه المعروفة كالوصف والفخر والهجاء والغزل والرثاء، وشهد الشعر الإسلامي العزوف عن بعض الأغراض الشعرية التي نهى عنها الدين الإسلامي كالهجاء مثلا، وظهرت أغراض جديدة وفقا لمستجدات الحياة الجديدة، وبعد الفتوحات العظمى خاصة بعد فتح الأندلس ظهرت أغراض جديدة كالتغنّي بتلك الفتوحات وبتلك الطبيعة الخلابة الساحرة التي وجدوها، فلا عن نظم الشعر في المتون العلمية والدينية وغيرها تبعا لتطور الحياة وازدهار العلوم التي شهدته الدولة الإسلامية، وبعد سقوط حضارة المسلمين هناك وسقوط المدن تواليا تحوّلت بعض الأغراض لتأخذ منحى مختلفا، فتحوّل الرثاء مثلا من رثاء الأموات إلى رثاء المدن، فضلا عن ظهور أغراض أخرى كغرض الاستنجاد والاستجداء، إضافة إلى نبوغ شعرائهم في كل الأغراض الشعرية.[24]

2-1-1- <u>تعريفه للشعر:</u>

يتعرض ابن خلدون إلى الشعر في معرض حديثه عن نوعي الأدب العربي، فيعرّفه بقوله: « هو الكلام الموزون المقفى ومعناه الذي تكون أوزانه كلها على رويٍّ واحد»[25]

ويتحدّث عن بعض أغراضه تمثيلا حين يوضّح أن لكل فنٍّ من الفنّين (الشعر والنثر) أغراضا خاصة معلومة، فيقول: « فأما الشعر فمنه المدح والهجاء والرثاء»[26]، وعند حديثه عن الشعر الذي يعدّه فنًّا هاما من فنون كلام العرب يقرّر أن الشعر لم يختصّ به إلا العرب، بل يوجد في سائر اللغات وعند كثير من الأمم، ويقول في ذلك: « اعلم أن الشعر لا يختصّ باللسان العربي فقط، بل هو موجود في كل لغة، سواء كانت عربية أو عجمية، وقد كان في الفرس شعراء، وفي يونان كذلك، وذكر منهم أرسطو في كتاب المنطق أوميروس الشاعر وأثنى عليه»[27]

2-1-2- <u>الأسلوب في الشعر:</u>

يختصّ الشعر باعتباره فنًّا أدبيا مميزا بأساليب لا تصلح لغيره من الفنون، يقول ابن خلدون في ذلك: «وهو في لسان العرب غريب النزعة عزيز المنحى، إذْ هو كلام مفصّل قطعا قطعا، متساوية في الوزن، متحدة في الحرف الأخير من كلّ قطعة، وتسمى كل قطعة من هذه القطعات عندهم: بيتا، ويسمى الحرف الأخير الذي تتّفق فيه: رويًّا وقافية، ويسمى جملة الكلام إلى آخره: قصيدةً وكلمة»[28]

ويتحدّث عن تركيب القطع في الشعر (الأبيات) واستقلال كل قطعة عن الأخرى، فيقول: « وينفرد كل بيت منه بإفادته في تراكيبه، حتى كأنه كلام وحده، مستقلٌ عما قبله وما بعده، وإذا أُفرِد كان تامًّا في بابه في مدح أو تشبيب أو رثاء، فيحرص الشاعر على إعطاء ذلك البيت ما يستقل في إفادته، ثم يُستأنف في البيت الآخر كلاما آخر كذلك»[29]

وللشعر قوالب خاصة يُفرغ فيها الشاعر كلامه، هذه القوالب لا تتأتّى له إلا عن طريق الصناعة والرياضة والممارسة، لأنها صعبة المأخذ على مَنْ يريد اكتساب الملكة الشعرية، فضلا عن استقلالية كل بيت –كما رأينا- وأنه كلامٌ تام في تركيبه وفي مقصوده، الأمر الذي يتطلّب نوعا خاصّا من التعلّم، فلا تكفي فيه استحكام ملكة اللغة، بل يحتاج إلى رعاية خاصة في الأساليب التي اختصّته العرب بها وباستعمالها فيه، ويقول ابن خلدون في ذلك: « ... وإنما ترجِع إلى صورة ذهنية للتراكيب المنتظمة كليّة باعتبار انطباقها على تركيب خاص، وتلك الصورة

ينتزعها الذهن من أعيان التراكيب وأشخاصها ويُصيّرها في الخيال كالقالب أو المنوال، حتّى يتّسع القالب بحصول التراكيب الوافية بمقصود الكلام»[30]

وما إن يترسّخ المنوال في ذهن الشاعر من خلال كثرة سماع الأشعار وحِفظها، حتى ينتقي التراكيب الصحيحة المستعملة عند العرب ويرصّها في القالب باعتبار الإعراب والبيان رصّا كما يرصّ البناء في القالب أو النسّاج في المنوال، فيتّسع القالب بهذه التراكيب لتؤدي مقصودها، وعلى مقدار جودة المسموع والمحفوظ تكون جودة الاستعمال في نظم الشعر.[31]

ويتحدّث ابن خلدون عن المطبوع من الشعر والمصنوع، ويقرّر ذلك من خلال إفادة بالبلاغة، فإذا كانت البلاغة داخلة في إفادة المعنى فهو شعر مطبوع، تأتّى لصاحبه أن يكون كلامُه تاما في طبيعته وسجيّته من إفادة مدلوله المقصود منه لأنه خطابٌ، وليس المقصود منه النطق فقط، بل المتكلم يقصد به أن يُفيد سامعه ما في ضميره إفادة تامة، وأن تلك التراكيب المفيدة المعنى تتبعها أساليب التزيين والتنميق من بيان وبديع، فتتجانس الألفاظ والمعاني، فيَحصُل الجمال في التعبير واللذة في الأسماع بعد حصول الفائدة، أما إذا خرجت البلاغة عن الإفادة وكان التحسين والتزيين لا يتبع المعاني كان الشعر مصنوعا، إذْ ما يهمّ الشاعر هنا هو الشكل أكثر من المعنى المقصود، فيبتعد في كثير من الأحيان عن مراده في التبليغ، ومن هنا ظهرت فنون أدبية كثيرة لا موضوع لها.[32]

2-1-3- الأغراض الشعرية:

تحدّث ابن خلدون عن بعض أغراض الشعر العربي في الفصل الأخير من مقدمته مشفوعة ببعض الأمثلة الشعرية، حيث استهلّها بالرثاء مفتتحا ذلك بشعر الشريف بن هاشم يبكي الجازية بنت سرحان في قصيدة مطلعها:

قال الشريف ابن هاشم علي *** ترى كبدي حرّى شكت من زفيرها

ثمّ عرّج عن العتاب على لسان الشريف بن هاشم أيضا يذكر عتابا وقع بينه وبين ماضي بن مُقرِب بقصيدة مطلعها:

تبدّى ماضي الجبّار وقال لي *** أشكر ما نحنا عليك رضاش

كما أدرج بعض الأشعار في وصف الرحلة وفي شعر السجون، ومنه قصيدة مطوّلة من شعر سلطان بن مظفر بن يحي وهو في سجن الأمير أبي زكريا بن أبي حفص، مطلعها:

يقول وفي بوح الدحا بعد وهنة *** حرام على أجفان عيني منامها

كما ضمّن ذلك أشعارا في الفخر، نذكر منها قول خالد بن حمزة بن عمر يجيب شبل بن مسكيانة شاعر أولاد المهلهل (قتلة قوم خالد) في قصيدة، منها:

يقول وذا قول المصاب الذي نشا *** قوارع قيعان يعاني صعابها
يريح بها حادي المصاب إذا سعى *** فنونا من إنشاد القوافي عذابها
محيرة مختارة من نشادها *** تحدّى بها تام الوشا ملتهابها
مغربلة عن ناقد في غضونها *** محكمة القيعان دابي ودابها
وهيض بتذكاري لها يا ذوي الندى *** قوارع من شبل وهذي جوابها

إضافة إلى الأغراض المذكورة سالفا ذكر ابن خلدون أيضا من الأغراض الوصف والأمثال والحكم وإثبات النسب وغيرها من الأغراض، معرّجا عنها من العصر الجاهلي حتى عصره، فذكر العتاب بأصنافه (عتاب الإخوة وعتاب أبناء العمومة) وصولا إلى الموشحات والأزجال في الأندلس وأغراضها.[33]

2-2- **النثر:**

قبل الحديث عن النثر وأنواعه في نظر ابن خلدون لا بدّ أن نشير إلى بعض الخصائص التي تميّز بها النثر خاصة النثر الفني في عصره خصوصا في الأندلس، حيث كان النثر يتميّز بأسلوب السجع، وازدهر فيها، وبرز في ذلك أعلام كثر منهم لسان الدين الخطيب وابن خلدون، هذا الأخير الذي تميّز بهذا الأسلوب ثم عدِل عنه لأسلوب الترسل، فضلا عن تنوّع أجناسه النثرية، فكان منها النثر العلمي والنثر التاريخي والنثر الفني.[34]

يشير ابن خلدون في كتابه "التعريف" في معرض حديثه عن استعمال الترسل في كتاباته للسلطان أبي سالم في السر والإنشاء والمخاطبات أنها كانت بالترسل فيقول: «... واستعملني في

كتابة سرّه، والترسيل عنه، والإنشاء في مخاطباته، وكان أكثرها يصدر عني بالكلام المرسل، أن يشاركني أحد ممن ينتحل الكتابة في الأسجاع لضعف انتحالها، وخفاء العالي منها على أكثر الناس، بخلاف المرسل، فانفردت به يومئذ وكان مستغربا عندهم بين أهل الصناعة»[35]

وقد تعرّض ابن خلدون إلى أسلوب الكتابة في عصره حيث عاب عن الكتّاب أسلوب السجع المتبع في الرسائل والمخاطبات وغيرها من أجناس النثر وهجرهم للأسلوب المرسل، ويقول في ذلك: «وقد استعمل المتأخرون أساليب الشعر وموازينه في المنثور من كثرة الأسجاع، والتزام التقفية وتقديم النسيب بين يدي الأغراض، وصار هذا المنثور إذا تأملته من باب الشعر وفنّه، ولم يفترقا إلا في الوزن، واستمر المتأخرون من الكتّاب على هذه الطريقة واستعملوه في المخاطبات السلطانية، وقصروا الاستعمال في هذا المنثور كلّه على هذا الفن الذي ارتضوه، وخلطوا الأساليب فيه، وهجروا المرسل وتناسوه وخصوصا أهل المشرق»[36]

ويُضيف في ذات الموضع أن هذا الأسلوب لا يصلح مع المخاطبات السلطانية لما فيه من ضعف من جهة البلاغة بعدم مطابقة الكلام لمقتضى الحال وأحوال الخطاب، وبما أدخل فيه المتأخرون من أساليب الشعر، فيقول: «...وصارت المخاطبات السلطانية لهذا العهد عند الكتّاب الغُفّل جاريةً على هذا الأسلوب الذي أشرنا إليه، وهو غير صواب من جهة البلاغة، لما يُلاحَظ في تطبيق الكلام على مقتضى الحال، ومن أحوال المخاطَب والمخاطِب، وهذا الفن المنثور المقفّى أدخل المتأخرون فيه أساليب الشعر، فوَجَب أن تُنزّه المخاطبات السلطانية عنه...»[37]

2-1-2- <u>تعريفه:</u>

يتعرض ابن خلدون إلى النثر وأنواعه أثناء حديثه عن نوعي الأدب، فيعرّفه بقوله: «النثر هو الكلام غير الموزون ... وأما النثر فمنه السجع الذي يؤتى به قِطعا، ويلتزم في كل كلمتين منه قافية واحدةٌ تسمّى سجعا، ومنه المرسل، وهو الذي يُطلق فيه الكلام إطلاقا ولا يُقطّع أجزاء، بل يُرسَل إرسالا من غير تقييد بقافية ولا غيرها، ويستعمل في الخطب والدعاء وترغيب الجمهور وترهيبهم»[38]

وتجدر الإشارة هنا إلى أن ابن خلدون أدرج القرآن الكريم ضمن النثر، إلا أنه ميّزه عن نوعيه، فهو خارج عن الوصفين لا مسجّعا ولا مُرسَلا، بل آيات تنتهي إلى مقاطع يشهد الذوق بانتهاء الكلام عندها، ويُعاد الكلام في الآية التي بعدها، حيث لا يُلتزَم فيه بحرف واحد يكون سجعا أو قافية، وتسمى نهاياتها بالفاصلة.[39]

2-2-2- <u>أسلوب نثر:</u>

ميّز ابن خلدون النثر بأساليب تختصّ به، حيث لا تصلح هذه الأساليب للفن الآخر (الشعر)، ويقول في ذلك: « واعلم أن لكل واحد من هذه الفنون أساليب تختصّ به عند أهله لا تصلح للفن الآخر ولا تُستعمَل فيه ... والحمد والدعاء المختص بالخطب، والدعاء المختصّ بالمخاطبات وأمثال ذلك»[40]

ويميّز ابن خلدون في الأسلوب المتّبع في المنثور بين نوعين هما: السجع والترسّل.

أ)- <u>الأسلوب المسجّع:</u>

عرفنا أن السجع هو أن يؤتى الكلام قطعا، تتوافق القطع في نهايتها بقافية، وهو أسلوب معروف منذ القدم، إلا أن ابن خلدون عاب على مستعمليه المغالاة فيه، لأن كثرة الأسجاع هي من موازين الشعر، فيصبح المنثور كأنه منظوم، بل عدّه بعد التأملّ فيه من باب الشعر وفنه، حيث أن الفرق الوحيد بين الكلام الكثير السجع والشعر هو الوزن فقط، فهو عنده من النوع المذموم، لأنه يؤدي بصاحبه إلى الاهتمام بالشكل، فيحيد عن المعاني المقصودة، فضلا عن إفساده البلاغة والنحو، فالمهتم بالسجع إنما لا يطابق الكلام أو التأليف عنده مقتضى الحال وأحوال الخطاب، لأن فيه من الكلام المقفّى وخلط الجدّ بالهزل والإطناب في الأوصاف وضرب الأمثال وكثرة التشبيهات والاستعارات مما لا تدعو له ضرورة الخطاب ما يتنافى والغاية منه، إذْ المخاطبات والرسائل يجب أن تمرّ مباشرة وإلى المقصود بأيسر طريق، وهذا لا يتأتى بالكلام المسجوع، فضلا عن أن هذا الأسلوب -في نظره- يتّبعه من لديهم قصور في إعطاء الكلام حقّه في مطابقته لمقتضى الحال، نظرا لاستيلاء العجمة على ألسنتهم، فولعوا بهذا المسجّع، يُعوّضون به ما نقصهم من تطبيق الكلام على المقصود ومقتضى الحال فيه، وينمّقون كلامهم بكثرة الأسجاع والبديع، ويجرون وراء ذلك، ويغفلون عما سوى ذلك وهو المقصود.[41]

ويشير ابن خلدون إلى أن أكثر مَنْ أخذ بهذا الأسلوب هم كتّاب المشرق، حيث غالوا في استعماله والكتابة به، حتى أنهم يُخلّون بالإعراب والتصريف إذا كانا حائلين عن جناس أو مطابقة أو غيرهما من وسائل التزيين اللغوية إذا كانا لا يجتمعان معها، فيرجّحون التزيين ويدعون الإعراب ويُفسدون بنية الكلمة.[42]

ب)- <u>الأسلوب المرسَل:</u>

سبق وأن عرفنا أن الأسلوب المرسل هو إطلاق الكلام من غير تقييد بوزن ولا قافية ولا غير ذلك من أساليب التنميق والتزيين المخلّة بالتعبير، لأن المتكلم أو المؤلّف هنا يهمّه إيصال المعنى بشكل مباشر وبأسهل الطرق، وهذا لا يتأتّى –حسب ابن خلدون- إلا لمن كانت ملكته سليمة وليس في لغته عجمة، فالكلام المرسل أمَدُه في البلاغة بعيد، وأفقُه في إيصال المعاني فسيح، فلا يخلّ صاحبه بالإعراب المفضي إلى الدلالة، ولا يُفسد بنية الكلمة المؤدية إلى الوضوح، فهو مطابق للمقصود ومقتضى الحال وأحوال الخطاب.[43]

<u>خاتمة:</u>

من خلال استعراض العلاقة بين اللغة والأدب حسب ابن خلدون يمكننا القول أن اللغة تمثّل العمود الأساس الذي تقوم عليه النصوص الأدبية والإنتاج الأدبي بشكل عام، وأن الأديب كلما كانت ملكته اللغوية مستحكمة، ومراعيا في تأليفه حسن الصياغة والأسلوب كان إنتاجه الأدبي رفيعا، وفي المقابل فإن الأدب يمثّل تمظهرًا حقيقيا للغة، تخرج للوجود وتظهر من خلال نصوصه، كما تُسهم النصوص بشكل عام في إثراء اللغة اكتسابًا واستعمالاً وتحكّمًا وتعليمًا، من هنا نحكم أن اللغة والأدب في نظر ابن ظاهرتان عمرانيتان تتكاملان، وتخدم كل ظاهرة منهما الأخرى.

<u>الهوامش:</u>

1- تزفتان تودوروف، في اللغة والأدب، ترجمة سعيد الغانمي، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، (ط1)، 2006، ص 45.

2- منصور قيسومة، الرواية العربية" الإشكال والتشكل"، دار سحر، تونس، (ط1)، 1997، ص71 -72.

3- إبراهيم خليل، في النقد والنقد الألسني، دار الكندي للنشر والتوزيع، الأردن، (ط1)، 2002، ص65 .

4- عبد الرحمن بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، تح: خليل شحادة، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، (د، ط)، 2008، ص 401.

5- ينظر: المصدر نفسه: ص:404.

6- ينظر: المصدر نفسه، ص410.

7- المصدر نفسه، ص 597-598.

8- المصدر نفسه، ص 605-606.

9- ينظر: العادل خضر، الأدب عند العرب مقاربة وسائطيّة، منشورات كليّة الآداب بمنّوبة، دار سحر، تونس، ط1، 2004، ص384.

10- ابن خلدون، المصدر نفسه، ص 606.

11- المصدر نفسه، 619.

12- المصدر نفسه، ص 621.

13- للتوسع في تصنيف الشعراء والمعايير المتخذة في ذلك التصنيف ينظر: طبقات فحول الشعراء لابن سلّام الجمحي، وطبقات الشعراء لابن المعتز، كما يمكن الرجوع لابن رشيق القيرواني في كتابه "العمدة"

14- نشير هنا إلى أن التباين بين الأدباء لا تتحكم فيه الطبائع والأخلاق فقط، بل هناك عوامل كثيرة نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر اللغة المكتسبة وثقافة الأديب واحتكاكه مع غيره، وثروته اللغوية، وتوجّهاته الفكرية والأيديولوجية، بل حتى البيئة الجغرافية التي يعيش فيها، وغيرها كثير من العوامل، فقط هنا أردنا الإشارة إلى أهمية اللغة في التباين بين الأدباء، بل بين المتكلمين بشكل عام.

15- ينظر: يوسف إبراهيم قطريب، ابن خلدون أديبا، دار الكتب العلمية، بيروت، (ط1)، 2016، ص 80.
16- ينظر: يوسف إبراهيم قطريب، المرجع السابق، ص 86.
17- أحمد الشايب، الأسلوب دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية، دار النهضة المصرية، القاهرة، (ط6)، 1966، ص 45، نقلا عن: ينظر: يوسف إبراهيم قطريب، المرجع السابق، ص 86.
18- ينظر: يوسف إبراهيم قطريب، المرجع نفسه ، ص86.
19- ابن خلدون، المصدر السابق، ص 629.
20- المصدر نفسه، ص 629-630.
21- المصدر نفسه، ص 622.
22- المصدر نفسه، 622-623.
23- ينظر: المصدر نفسه، ص 619- 637.
24- ينظر: يوسف ابراهيم قطريب، المرجع السابق، ص29.
25- ابن خلدون، المصدر السابق، ص 619.
26- المصدر نفسه، ص 619.
27- المصدر نفسه، ص 637.
28- المصدر نفسه، ص 621.
29- المصدر نفسه، ص 621-622.
30- المصدر نفسه، ص 623.
31- ينظر: المصدر نفسه، ص 630.
32- ينظر: المصدر نفسه، ص 632-634.
33- ينظر: المصدر نفسه، ص 637-663.
34- ينظر: يوسف ابراهيم قطريب، المرجع السابق، ص 121.

35- ابن خلدون، التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا، دار الكتاب اللبناني، بيروت، (د، ط)، 1979، ص 72.

36- ابن خلدون، المقدمة، ص 619-620.

37- المصدر نفسه، ص 620.

38- المصدر نفسه، ص 619.

39- ينظر: المصدر نفسه، ص 619.

40- المصدر نفسه، ص 619.

41- ينظر: ابن خلدون، المقدمة، ص 620.

42- ينظر: المصدر نفسه، ص 620.

43- ينظر: المصدر نفسه، ص 620.